سلسلة حوارات المستقبل

١

مصر والنموذج الديمقراطى

من هنا نعلم ونبدأ

د. وحيد عبد المجيد

النموذج الديمقراطى وحوار المستقبل

م. أبو العلا ماضى

مراوغة المفهوم والتباس

التجربة وشروط الانتقال

أمين اسكندر

الديمقراطية ليست وسيلة فحسب

فريد زهران

يناير ١٩٩٩

من هنا نعلم ونبدأ

د. وحيد عبد المجيد

النموذج الديمقراطى وحوار المستقبل

م. أبو العلا ماضى

مراوغة المفهوم والتباس التجربة وشروط الانتقال

أمين اسكندر

الديمقراطية ليست وسيلة فحسب

فريد زهران

من هنا نعلم ونبدأ

د. وحيد عبد المجيد

لعل كثيرين من المشاركين فى هذا الحوار غير المسبوق، وغيرهم، يدركون مغزى اختيار هذا العنوان. فهو يجمع بين عنوانى كتابين مهمين مثلا، فى منتصف هذا القرن الذى يوشك على نهايته، حلقة من حلقات الخلاف الاستقطابى الذى ما برح قائما بكل تداعياته الكارثية على مستقبل بلادنا.

كتب الراحل العظيم خالد محمد خالد كتابه "من هنا نبدأ" منطلقا من مرجعية علمانية أعاد النظر فيها بعد ذلك دون أن يتخلى عن إيجابياتها الديمقراطية. ورد عليه الراحل الكبير الشيخ محمد الغزالى فى كتابه "من هنا نعلم" منطلقا من مرجعية إسلامية حافظ عليها ولكنه أعاد النظر فى غير قليل من جوانبها وظل يجتهد فى إطارها بما يفيد الشعب والوطن.

والمفارقة هى أنه رغم اقتراب المفكرين الجليلين من بعضهما البعض فى سنواتها الأخيرة، إلا أن الخلاف الذى تعاركا فكريا بسببه صار أكثر حدة فى الساحتين السياسية والثقافية مقارنة بما كان عليه إبان معركتهما التاريخية.

كما اتسع نطاقه، وشمل مختلف التيارات السياسية والفكرية، عل نحو حول بلادنا إلى ميدان لحرب الكل ضد الكل.. حرب ضروس لا يمكن أن تستمر بلا نهاية لتقويض كل أمل فى حوار جاد مخلص يهدف إلى الخروج من المحنة التى نعيشها، ويجدد الأمل فى مستقبل أفضل . حرب تتراكم خطايا أطرافها طبقات فوق أخرى. فإذا بها اليوم أكثر احتداما ما وبشاعة كانت عليه فى منتصف القرن، وستزداد مآسيها أضعافا إذا تركناها مستمرة لسنوات قادمة.

كتيبة إنقاذ:

ومن هنا كانت فكرة هذا الحوار التى تبلورت خلال مناقشات مع أصدقاء وزملاء من مختلف التيارات إسلامية وماركسية وناصرية أحبهم واحترمهم وأثق فى استعداد كل منهم للتضحية من أجل هذا الوطن الذى يضيع فى ظل تفاقم اختلالاته السياسية والاجتماعية وتراجع مناعته أمام الاختراق الخارجى من "أصدقاء" وأعداء فى آن معا.

وليس هنا مجال الخوض فى الاختلالات الداخلية والاختراقات الخارجية، لأن الأصل هو أننا نسير على غير هدى ولا نعرف إلى أين نمضى. وفى غياب حوار جاد، يبدو كل فريق فى حالة اضطراب يشتد يوما بعد آخر. فليس غير الحوار وسيلة لاكتشاف طريقنا، لكى نعرف علام نحن متفقون أو مختلفون. فإذا علمنا ذلك، نستطيع أن نبدأ فى بلورة وتطوير رؤية لمستقبلنا نتفق على خطوطها العامة، ونتفاهم على كيفية إدارة الخلافات بيننا بأساليب حضارية، بعد أن نبذل كل ما نستطيع من أجل تقليص هذه الخلافات قدر الإمكان.

إن ما نحتاجه، تحديدا، هو ان نوجد أرضية مشتركة نبدأ منها ونتنافس انطلاقا من وقوفنا جميعا عليها. ومهما اشتد التنافس ، فى وجود هذه الأرضية أو القاسم المشترك، لن يتحول إلى صراع يسعى بعضنا عبره إلى أن يصرع البعض الآخر.

ومن هنا كان اتفاقنا على أن نبدأ حوارنا الممتد بإذن الله بقضية الديمقراطية، وعبر إطار واسع قدر الإمكان، لسببين: أولهما أن الأرضية المشتركة التى نتحدث عنها تقتضى تفهاما على الديمقراطية التى نرتضيها جميعا باعتبارها الآلية التى لم يتوصل البشر حتى الآن إلى ما هو أفضل منها فى تنظيم علاقاتهم السياسية. وثانيهما أن قضية الديمقراطية كاشفة بطابعها لمدى اتفاقنا أو اختلافنا على مسائل كثيرة تتجاوز السياسة إلى المجتمع والثقافة.

وكان إقبال الشباب من التيارات الأربعة الأساسية الليبرالى والإسلامى والناصرى والماركسى على هذا الحوار فاتحة خير وبشرى ورغم ما يلاحظه القارئ لإسهاماتهم من خلافات تبدو حادة فى بعض الأحيان.

ولكننى أرى نتائج هذه المجموعة الأولى من المساهمات إيجابية فى مجملها، إذا نظرنا إليها من منظور تاريخى.

أجزاء حية

يكفى أولا، أن الإقبال على المساهمة فى هذا الحوار فاق ما توقعه أى ممن فكروا فيه ودعوا إليه. وهو إقبال يؤكد أن الساحة السياسية لم تلفظ

أنفاسها كليا ولم تتحول إلى جثة هامدة تماما بحيث لا يبقى لدينا غير أن نشيعها إلى مثواها الأخير. إن هذا الحوار دليل على أن هناك أجزاء ما برحت حية في جسد تمكن منه الشلل فأقعده إلى الحد الذى بدا أنه مات وانقضى أمره.

لقد أقبل أصدقاء وزملاء على المشاركة فى حوار لم يكن هناك أى دليل على إمكان تحقيقه فعلا، ناهيك عن استمراره.وكم سمع كثير من هؤلاء عن حوارات لا تخرج أبدا من حيز الخيال إلى الواقع. ولو أنهم أصموا أذانهم عن تلك الدعوة، مثلما فعل غيرهم. ما لامهم أحد.

ولكنه الأمل ، الذى لم يقطع نهائيا مهما كان ضعيفا شاحبا: أمل دفعهم إلى الاستجابة لدعوة وجهت إليهم فى وقت غير مناسب: فى زمهرير صيف اشتدت سخونته إلى حدود لا قبل لنا بها.

إن هذه الاستجابة هى أول ما يشجع على التفاؤل بمستقبل الحوار أيا يكن مضمون المساهمات ونوع الآراء والأفكار.

نحو انفتاح متبادل

ومع ذلك فإن الجردة الأولى المبكرة تعتبر إيجابية من حيث المضمون وخاصة إذا نظرنا إلى منتصف الكوب الممتلئ وليس فقط الفارغ. تدل هذه الجردة الأولى على أن فى إمكاننا الوصول إلى مساحة معتبرة من الإتفاق بشأن قضية كان الخلاف عليها واسعا فيما مضى، لا بل لم يكن هناك أى قدر من الاتفاق على المقصود بالديمقراطية.

فمن كان يتصور، قبل سنوات، أن يتفق ليبراليون وناصريون وإسلاميون وماركسيون على أهمية الديمقراطية، وعلى مفهومها القائم على التعدد والحرية والانتخابات النزيهة الدورية. وأكثر من ذلك، فإننى أقر هنا بأن بعض الماركسيين والإسلاميين والناصريين تفوقوا على بعض الليبراليين فى الموقف من الديمقراطية، وفى التسامح وسعة الصدر اللذين يفترض أنهما من أخص خصائص التوجه الليبرالى. فقد أبدى بعض الليبراليين تخوفا من فتح الباب لجميع التيارات السياسية والفكرية دون استثناء ، خشية قيام، خشية قيام حزب دينى متعصب،والمثير للاستغراب أن اثنين فقط من الإسلاميين هما اللذان أيدا فتح الباب بلا استثناء رغم أنهم هم الذين يعانون من وضع قيود فى هذا المجال أكثر من غيرهم. ولكن أن يذهب إسلامى إلى أنه ليس من حق أحد أن يصادر حق إنسان أو تيار فى التعبير عن نفسه فهذا موقف ننحنى له تقديرا ونتيه به فرحا.

ولم يكن الخلاف فى هذا المجال مقصورا على الإسلاميين، ولا على الليبراليين بعضهم البعض: إنه أحد الخلافات القائمة فى داخل كل من التيارات الأربعة. فقد تحفظ معظم الناصريين على فتح الباب أمام الجميع بلا استثناء،مع إبداء خوف واضح من حزب دينى. وفى هذا تساوى ليبراليون يفترض أن يضربوا المثل فى التسامح، وناصريون يضعهم بعض مثقفى السلطة من ضيقى الأفق "على أرضية واحدة" مع الإسلاميين. قرأنا فى إسهامات الناصريين أن حزبا للتيار الإسلامى سينفى الإسلام عن بقية التيارات أو سيعرض الوحدة الوطنية للخطر، وقد يؤدى إلى تفكيك الدولة. ولكن قرأنا أيضا لناصرى آخر مع فتح الباب للجميع طالما انهم يعملون بشكل ديمقراطى سلمى، ولغيره يرفض منع التيار الدينى من إنشاء حزب رغم ما يراه من أن (إتاحة الفرصة له للوصول إلى السلطة قد تخلق مشاكل وصراعات طائفية وتعصبا دينيا).

كما قرأنا مساهمات ليبراليين تحفظوا على (تيارات تدخل عقائد دينية ضد الأطر السياسية)، أو (على أحزاب دينية تشق جدار الوطن) أو تقوم على (فكرة الدولة الدينية). ومع ذلك لدينا إسهامات ليبرالية أخرى، أو بالأحرى ليبرالية (أصلية) ترفض وضع قيود أو حرمان أى تيار من المشاركة السلمية ويدخل فيها الرأى الذى يرفض قيام أحزاب على أسس دينية، ولكنه يقبل أحزابا لبرامجها مرجعية دينية.

والمفاجأة الكبرى هنا، هى أن معظم المساهمات الماركسية أيدت فتح الباب للجميع بلا استثناء، بل وذهبت إحداها إلى أن هذا ينطبق على القوى المعادية للديمقراطية أيضا طالما التزمت بالأساليب السلمية.

خلافات داخلية

وليس التاريخية أولا الموقف من فتح الباب للجميع إلا مثالا واحدا على وجود خلافات واضحة فى داخل من التيارات الأربعة، وبحجم يفوق كل ما كان متوقعا. ولكن هذه ظاهرة إيجابية ومبشرة: فهى تعنى وجود مراجعات فكرية وسياسية فى داخل كل تيار. وهذا مؤشر على مغادرة الخنادق وعلى الاستعداد لتغيير المواقف عند الحاجة، الأمر الذى لا يمكن إجراء حوار جاد دون توافره. ويترتب على ذلك، أيضا، وجود مقاطعات فى المواقف بين التيارات الأربعة. فنجد فريقا فى التيار الليبرالى متفقا مع فريق فى التيار الناصرى تجاه مسألة محددة، فى الوقت الذى يختلف هذا الفريق وذاك مع فريق آخر داخل تياره بشأن هذه المسألة.

صحيح أن ازدياد الخلافات الداخلية وتجاوزها مستوى معينا ليس صحيا ولكن غياب أى خلاف هو دليل على مرض أكثر عضالا. وإذا كنا فى مجال مقارنة، فإن وجود خلافات هو أفضل من توافر إجماع فى كل الأحوال،وخاصة حين نكون بصدد حوار جاد.

ويظل هذا الحكم سليما حتى إذا وجدنا شباب الناصريين مختلفين على موضوع الأحزاب إلى حد أنهم موزعون على مختلف المواقف، من أكثرها ديمقراطية حيث التعدد الحزبى نزولا إلى تنظيم ائتلاف يضم عدة أحزاب، ثم إلى حزب واحد.

وهذا التنوع ليس مفاجئا لى، ولا هو ظاهرة مرضية بالضرورة، خاصة وأن معظم المساهمين إما مع تعدد حزبى أو قريبين منه.

ومن الطبيعى أن يحرصوا أيضا على البعد الاجتماعى الذى نؤمن به معهم، ونعترف لثورة ١٩٥٢ والرئيس جمال عبد الناصر بدورهما فى تأكيد هذا البعد، رغم أى خلاف على قضايا أخرى. وقد برز فى مساهمات شباب الليبراليين اهتمام بحل مشكلة البطالة، ونقد لدور رجال الأعمال المختارين ليعملوا على تجميد الأوضاع على ما هى عليه وتحذير من الدور الطاغى للشركات الكبرى فى النموذج الديمقراطى الغربى.

والملاحظ أن تعبير بعض الليبراليين عن اهتمامهم بالقضية الاجتماعية فاق الماركسين الذين برز بعضهم الليبراليين فى الانفتاح على غيرهم، وخاصة فيما يتعلق بالموقف من (حزب دينى). غير أن المشاركين فى هذا الحوار حتى الآن لا يعبرون عن الطيف الماركسى الذى ما زالت ألوانه فى ازدياد مستمر بلا نهاية. فالمواقف التى تم التعبير عنها هى من بين الأكثر تقدما على الإطلاق تجاه المسألة الديمقراطية، بما فى ذلك تجاه التيار الإسلامى. ولذلك ندعو أصدقاءنا فى التيار الماركسى، أو التيارات الماركسية بمعنى أدق، ممن يتبنون مواقف أخرى إلى أن يطرحوها فى إطار هذا الحوار.

وربما لأن المساهمات الماركسية لا تعبر إلا عن قليل من ألوان كثيرة فى هذا التيار، جاءت الخلافات بين المساهمين محدودة مقارنة بالتيارات الثلاثة الأخرى. وهذا فضلا عن قلة عددهم أصلا. فنجد من يرى فى النموذج الغربى أفضل ما أمكن للبشر تحقيقه حتى الآن، ومن لا يقتنع بوجود نموذج واحد ومن يجادل بأن المهم ليس النموذج بل تبلور جماعة سياسية تعددية متمايزة من الدولة.

حوار إسلامى - إسلامى

أما الخلافات فى التيار الإسلامى وفقا لآراء المساهمين منه فى الحوار فهى واسعة وتحتاج إلى حوار داخلى.. فشتان بين قول صديقى د. إبراهيم بيومى غانم من أن (لفظ الديمقراطية لا يسعدنى ولكنه أيضا لا يشقينى) وبين قول أ. حازم الكيلانى إن (الديمقراطية عندى هى شرط الإصلاح وقوته الدافعة وأساسه المتين).

لقد كانت مساهمة الكيلانى هى أكثر ما أسعدنى فى هذا الحوار حتى الآن هذا المدرس السكندرى الذى تعرفت عليه للمرة الأولى من خلال مقالته البديعة التى تعلمت منها وشعرت بمدى صدقها.. والكتابة الصادقة هى بطابعها شفافة. ولكنها لا تفصح فقط عن ضمير كاتبها، ولكن تقرب بينه وبين من يشعر بصدق ما كتب مهما كانت المسافة بينهما. وتأملت ما كتبه من أن (الديمقراطية هى أرقى نظام توصلت إليه البشرية ويتيح لها أن تعيش كيف تريد. وهى أفضل أسلوب يتيح للإنسان أن يمارس إنسانيته). فالحرية هى الفطرة التى فطر الله الناس عليها قبل أن يسلبها منه حاكم مستبد أو دكتاتور طاغية. وما الديمقراطية إلا ذلك النظام الإجرائى المؤسسى الذى يتيح للإنسان أن يسترد حريته التى منحها الله له من الطغاة الذين يسلبون منحة الله ويعتدون على ناموسه، سواء حكموا باسم أديان أو عقائد مقدسة أو غير مقدسة: فكيف تكون هذه الديمقراطية (حمالة أوجه) يا أخى إبراهيم، وما الذى يجعلها هى نفسها تجلب مفسدة إلى جانب ما تحققه من منفعة حسب ما رأيتها، وأى (قيم مزدوجة وأهداف سافلة) تلك التى ينطوى عليها معنى الديمقراطية عندك ؟

وكأن حازم الكيلانى يصحح لك بقوله: (من هنا يكمن خطأ البعض حين لا يعرف عن الديمقراطية الغربية إلا أنها تبيح الشذوذ الجنسى والتفلت من القيم وإباحة الرذائل الخلقية). ثم يضيف كأنه يخاطبه: (لا أنظر لهذه الأشياء على أنها لوازم الديمقراطية ولا ناتجها، بل هى من وجهة نظرى نواتج مفاهيم وعقائد هؤلاء الغربيين.. فهى ليست من لوازم الديمقراطية، بل هى من لوازم النمط الأخلاقى الغربى. ولو شئنا لأن نرفض، فلنرفض هذا النمط الأخلاقى).

واكثر من ذلك، فالديمقراطية ليست غربية، ولا ينبغى لها أن تكون. إنها نتاج نضال وجهاد شعوب العالم كله على مدى قرون فى مواجهة الطغيان.. نتاج معاناة البشر من كل الأجناس على أيدى جلادين بلا إنسانية.. إنها النتاج الذى تصادف أن تبلور فى منطقة معينة من العالم هى الأكثر تقدما فى العصر الحديث، ولكن ليس فى كل عصر. واتاح ذلك أن تظهر الديمقراطية فى

الغرب. وإن لم تبق محصورة فيه. وليست مصادفة أن اثنين من المساهمين فى الحوار أشارا إلى أهمية الاستفادة من التجربة الهندية فى الديمقراطية. ولكننا آثرنا أن نستخدمه فى الأسئلة التى طرحت على المساهمين ليس فقط جريا على شيوعه، ولكن أيضا لنكتشف كيف سيتم التعامل معه، ولنطلق كل ما فى داخل كل منا. وهذا أحد أهداف الحوار: أن يعبر كل المساهمين عن مكنونات أنفسهم كما هى وبأوضح صورة.

وقد أثار وصف النموذج الديمقراطى بأنه غربى ردود فعل متباينة أشد التباين ولكن لنتفق على أننا نقصد ذلك النموذج الذى ظهر أولا فى الغرب ثم صار أو بالأحرى يصير عالميا. كما نقصد الأسس المؤسسية والإجرائية والتنظيمية، وفى مقدمتها التعددية الحرة المفتوحة، والانتخابات الدورية النزيهة، والتداول على السلطة، فضلا عن احترام حقوق الإنسان. والقيم المتضمنة هنا هى قيم إنسانية عامة لا غربية ولا شرقية. مثل التسامح والاعتراف بالآخر واحترامه رغم الخلاف معه والحوار. إنها قيم الحرية، التى لا تكتمل إنسانية الإنسان كما خلقها الله، بدونها..

وهذا هو جوهر الديمقراطية الذى اقترح أن نتفق عليه، وأن نناقش مكوناته الأساسية بدءا بالتعدد الحزبى الذى أظهرت بواكير الحوار خلافا على حدوده، وخاصة حين يتعلق الأمر بحزب يخشى بعض المساهمين أن يكون دينيا.

معا .. من أجل مصر

إننى واثق فى أن إيجابيات هذه الجولة الأولى فى الحوار تتيح لنا تفاهما متينا على مكونات الديمقراطية التى نتمناها. ونحن متفقون على أنه ليس بيننا من لديه شهادة من السماء بالعصمة من كل خطأ. ولا هناك من يجوز اعتباره مبرأ من كل عيب.

وبهذه الروح نستطيع أن نمضى قدما فى حوار المستقبل، بلا خنادق نتقوقع فيها، ولا متاريس أمامها.

ولنا، نحن المساهمين فى هذه الجولة من الحوار، أن نفخر بذلك ونحافظ عليه ونطوره وننميه.. إننا لا نحمل ميراث العداء بين التيارات الأربعة فى الأجيال السابقة، أو قل لانحمله كله باعتبارنا تأثرنا جزئيا به. كما أن المعارك الحادة التى وقعت بين بعضنا البعض فى الجامعات فى بعض الفترات محدودة و التباينات الداخلية فى كل تيار تصل لمصلحة الحوار وليس ضده كما أسلفت.

وإننى أدعو من لا يعتقدون فى ذلك وخاصة من الأجيال السابقة، إلى قراءة هذا العدد من (حوار المستقبل)

وتأمله، سيجدون ما لا يخطر على بالهم وسيلاحظون أن فى إمكان الأجيال المشاركة فى هذا الحوار أن يتجاوز العداء المتبادل الذى يراد توريثه لهم.

إن هذه الجولة تؤكد، أيضا، خطأ الاعتقاد فى أنه لا فرق بين التيارات الأربعة من حيث الاغتراب فى الزمان، بمعنى أن الزمان مقصور على ماض ومستقبل بلا حاضر: يوتوبيا ماضية يراد استعادتها فى مستقبل مجهول ليس متصلا بالحاضر المعلوم ! وهذا اعتقاد روج له بعض من خدم الطغيان ومن أهل اليأس فى آن معا.

فكل من يقرأ المساهمات المنشورة على هذا العدد يدرك أن الخطاب الإسلامى هنا ليس هو ذلك الذى لا هم له إلا العودة إلى عصر النبوة والخلافة الراشدة. كما أن الخطاب الناصرى هنا ليس هو الذى يتوق إلى حلم الستينيات فى الحرية والاشتراكية والوحدة. والخطاب الماركسى ليس هو الذى يجسد أحلام لينين أو ماوتس تونج أو جيفارا، ولا الخطاب الليبرالى هو الذى يقال إنه لا يتضمن أكثر من البكاء على أطلال حرية ما قبل ١٩٥٢.

هنا خطاب جديد شاب لم يفقد الأمل كله حتى إذا فقد معظمه. وهنا محاولة لتجديد هذا الأمل.. معا سنواصل الحوار وسنحاول، وسنعاود الغناء مع سمير عبد الباقى وعدلى فخرى:

يا مصر

بيعدوا فيكى الرجال
بيعدوا جيل ورا جيل
وطريق الألف ميل
لسة برضه ألف ميل

يا مصر

قومى انطقى فكى قيود أسرك
مدى الخطاوى الحقى وحصلى عصرك

يامصر

قوى القلوب وازحفى
وطلعى فجرك عفى

وليس هذا تراثا فنيا لليسار فقط. هو تراث يسارى لمصر بكل تياراتها مثله مثل التراث الليبرالى والإسلامى والناصرى.

وهل أفضل تعبيرا عما نسعى إليه فى حوار المستقبل مما كتبه الجاحظ فى القرن التاسع الميلادى (لنؤلف بين قلوبهم إن كانت مختلفة، ولنزيد الألفة إن كانت مؤتلفة...).